

## تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ ١ ﴾ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ ٢ ﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ ٣ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْفَقُونَ نَسِيحَهُمْ إِتْهَانًا كَانَ حُلِيمًا غُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرياض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية . وروى أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : اشىء من شك ؟ قال - وضحك - قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل الله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ قَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية [يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً . وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علماً ، والباطن على كل شىء علماً (٢) . وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالتق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر . ورواه مسلم عن سهيل (٣) قال : كان أبو صالح يأمركم إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، فالتق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ،

(١) أبو داود ( ٥١٠ ) وصححه الألبانى . (٢) البخارى ( ١٣ / ٣٦١ فتح ) .

(٣) فى المطبوعة : سهل وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه كما عند مسلم وأحمد وفى المخطوطة .

وانت الباطن فليس دونك شيء ، افض عنا الدين ، واغتنا من الفقر . وكان يروى ذلك ، عن ابي هريرة ، عن النبي ﷺ (١) .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْسِيِّ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَمْ يَلِكْ لَكُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُؤَلِّقُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والارض وما بينهما في ستة ايام ، ثم اجبر باستوائه على العرش بعد خلقهن . وقد تقدم الكلام على هذه الآية واشباهها في سورة « الاعراف » (٢) ، بما اغنى عن إعادته ها هنا . « يعلم ما يليح في الارض » اي : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر « وما يخرج منها » من ريع ونبات وثمار ، كما قال : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقه الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » [ الانعام : ٥٩ ] .

وقوله : « وما ينزل من السماء » اي : من الامطار ، والثلوج والبرد ، والاقطار والاحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم في سورة « البقرة » انه ما ينزل من قطرة من السماء الا ومعها ملك يقرؤها في المكان الذي يامر الله به حيث يشاء تعالى . « وما يخرج فيها » اي : من الملائكة والاعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (٣) .

وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » اي : رقيب عليكم ، شهيد على اعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو الفقار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سرهم ونحوكم ، كما قال : « أَلَا إِنَّهُمْ يَشْرُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَحِينَ يَسْتَشْفُونَ لِنَاهِهِمْ يَعْلَمُ مَا بَشَرُونَ وَمَا يَكْتُمُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » [ هود : ٥٠ ] . وقال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُتَخَفٍ بِاللَّيْلِ مُبَارِبٌ بِالنَّهَارِ » [ الرعد : ١٠ ] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإنسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَقْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَقْتُ وَلَكِنْ قُلْ : عَلَى رَقِيبٍ  
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله : « لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » اي : هو المالك للعالمين والآخرة ، كما قال : « وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى » [ الليل : ١٣ ] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ » [ القصص : ٧٠ ] ، وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » [ سبأ : ١ ] . فجميع ما في السموات والارض « إِلَاتِنِ الرَّحْمَنِ عِبَادًا . لَقَدْ أَحْضَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عِبَادًا .

(٢) عند الآية (٥٤) .

(١) المسند ( ٢ / ٤٠٤ ) ومسلم ( ٢٧١٣ / ٦١ ) .

(٤) البخاري ( ٥٠ ) ومسلم ( ١ / ٨ ) .

(٣) مسلم ( ١٧٩ / ٢٩٣ ) .

وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٣-٩٥﴾ . ولهذا قال : ﴿وَأِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٤٠] . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِهَا حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا : ٤٧] .

وقوله : ﴿يُؤْتِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقبض الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ مَا مَثُورًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنِفْعُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَعُوا مِمَّنْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿٩٦﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يُنْتَبِ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِزُغُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي سِوَاكَ مَنْ أَنفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَعُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٩٩﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُمْرُسُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٠٠﴾

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الاكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله : ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ : فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلمل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يمضى الله فيه فتكون قد سمعت فى معاوته على الأئمة والعدوان . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿ أَلْتَأْتُمُ الْفَكَائِرَ ﴾ [التكاثر : ١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ . ورواه مسلم ، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » (١) .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَعُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا

(١) المسند (٢٤/٤) ومسلم (٢٩٥٨ / ٤) .

في الحديث من طرُق في أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى : أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم ، يجلدون صُحفاً يؤمنون بما فيها . » وقد ذكرنا طرفاً من هذا في أول سورة « البقرة » <sup>(١)</sup> عند قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » [ البقرة : ٣ ] . وقوله : « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ » كما قال : « وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » [ المائدة : ٧ ] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ . ورعِم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، قاله أعلم .

وقوله : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » أى : حججاً واضحة ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، « لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، « وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَعَرُوفٌ رَحِيمٌ » أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العليل وإزالة الشبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، ويده مقاليدهما ، وعنده خزائنها ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » [ سبأ : ٣٩ ] ، وقال : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » [ النحل : ٩٦ ] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله : « لَا يَسْتَوِي بَيْنَكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ » أى : لا يستوى هنا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ولهذا قال : « أَوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى » . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد : عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سيقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو أنفقتم مثل أحد - أو : مثل الجبال - ذهباً ، ما بلغتم أعمالهم » <sup>(٢)</sup> . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جديمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ ، خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : « صباناً ، صباناً » ، فلم يحسنوا أن يقولوا : « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن

(١) ومضى تخريجه هناك .

(٢) المسند ( ٢٦٦ / ٣ ) . وهو عند البخارى بلفظ قريب منه ( ٢٦٧٣ ) ومسلم ( ٢٥٤٠ / ٢٢١ ) .



نوره مثل الرجل القائم ، وأذناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطلق مرة . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير . وقال قتادة : ذكر لنا إن نبي الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنماء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » (١) . وقال سفيان الثوري ، عن حصين ، عن مجاهد عن جنادة بن أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحلائكم ، ونحواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يَسْمَى نُورَهُم بِنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ . وقال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طُفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، ألم لنا نورنا . وقال الحسن فى قوله : ﴿ يَسْمَى نُورَهُم بِنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ : معنى : على الصراط .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِإِيمَانِهِ ﴾ [الإسراء : ٧١] . وقوله : ﴿ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكنين فيها أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرْنَا نَقَسٍ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأحوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمر الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر . قال سليم بن عامر : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تطعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تستقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يفضى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تستقلون منه إلى منزل آخر فتفضى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظَلَمَاتٍ لِي بِحَمْرٍ لَجِي ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ أَنْظَرُونَا نَقَسٍ مِنْ نُورِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغترأ حتى يقسم التور ، ويميز الله بين المؤمن والمنافق . وقال ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنون قد انطلقوا تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حيثئذ : ﴿ أَنْظَرُونَا نَقَسٍ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، فإننا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا عنالك النور .

وقوله : ﴿ فَضْرِبْ بَنَتَهُمْ بِسُورِ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : قال الحسن ، وقناة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذى قال الله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعُهُ الْجَنَّةُ ﴾ [ الاعراف : ٤٦ ] . وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد ، وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قناة ، وابن زيد ، وغيرهما . قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادى جهنم . ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الاحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك . وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وإنما المراد بذلك : سورٌ يُضْرَبُ يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجمعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أى فتتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : اخترتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قناة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأمله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيفتر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : ما زلتُمْ فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان . قال قناة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زلوا عليها حتى قذفهم الله فى النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكتمتُمُ تُرَاوِنُ الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً . قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويفشونهم ويعاشرُونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفاؤ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويمار بينهم حينئذ . وهذا القول من المؤمنين لا يتناقى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو اصدق القائلين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ . إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَحْرُفُ مَعَ الْخَالِصِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى آتَانَا الْيَقِيْنَ ﴾ [ المدثر : ٣٨ - ٤٧ ] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا تَتَفَهَّمُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [ المدثر : ٤٨ ] ، كما قال تعالى هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ مَاوَأْتِمُّ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم ﴿ هِىَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيا بكم ، وبس المصير .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِ فَطَال عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُوكُمْ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول الله تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فضمحه وتقاد له وتسمع له وتطيعه. عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم، ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية إلا أربع سنين (١).

وقوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَال عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الامد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتضكة، وقلدوا الرجال فى دين الله، واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى: فى الاعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. كما قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، أى: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيبتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الاعمال التى أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شيء من الأمور الأصلية والفرعية.

وقوله: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فيه إشارة إلى انه، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدى الحيارى بعد ضللتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدى القلوب القاسية براهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مغلقة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذى هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عما يتيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقير والمسكنة، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أى: دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء عن أعطوه ولا شكوراً؛ ولهذا قال: ﴿يَضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أى: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أى: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب حسن.

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : هنا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسوله بأنهم صديقون . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : هذه مفصلة ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ . وقال أبو الضحى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم . وقال عبد الله [ بن مسعود ] في قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قال : هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصادقين ، والشهداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَطْعَمْهُ اللَّهُ فَذُقْهُ مَعَ الرِّسُولِ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] ، ففرق بين الصادقين والشهداء ، فدل على أنها صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليرتادون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراوون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى ، والذي نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . اتفق البخارى ومسلم على إخراجه (١) . وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسوله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد .

وقال عمرو بن ميمون فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضرت فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فىك فنقتل كما قُتِلنا أول مرة . فقال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٢) . وقوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسمى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الاعمال .

كما روى الإمام أحمد عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة بن عبيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذى ينظر الناس إليه هكذا - ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر - والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غرّب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر

(١) لم احثر عليه فى المطا ورواه البخارى (٣٢٥٦) ومسلم (١١ / ٢٨٣١) .

(٢) مسلم (١٢١ / ١٨٨٧) ، ولم يمه صاحب التحفة (١٤٥ / ٧) للبخارى .

(٣) المسند (١٥٠) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده حسن » .

الاشقياء وبين حالهم .

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها : ﴿ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى : إما جاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشُّهُورَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمُنَاقِبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] . ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة رائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾

[الشورى: ٢٨]

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير ييبساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعشوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتغير طبعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على روال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وإن الآخرة كائنة لا محالة ، حذّر من أمرها ورعّب فيما فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فإنه يفتن بها وتعجبه حتى يمتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . روى ابن جرير : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة <sup>(١)</sup> ، والله أعلم . وزوى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب

(١) ابن جرير فى التفسير ( ٢٧ / ١٣٤ ) والبخارى ( ٦٤١٥ ) .

إلى أحديكم من شرّك نعله، والنار مثل ذلك . انفراد بإخراجه البخارى<sup>(١)</sup>. ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهدا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٣٣ ] . وقال ماهنا : ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدّمنا فى الصحيح : أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّونَ كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتكم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجموا فقالوا : سمع إخواننا أهل الاموال ما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »<sup>(٢)</sup>.

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنَ النَّاسِ يَلْحَقُونَ بِالْخُلُقِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنَى الْحَمِيدُ ﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة وتبرأ النعمة . وقال بعضهم : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ للدلالة الكلام عليها، وقال قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : هى السنون . يعنى : الجدب ، ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بدنب ، وما يغفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله - وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » . ورواه مسلم : « وكان عرشه على الماء » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح<sup>(٣)</sup> . وقوله : ﴿ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل ؛ لانه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا

(١) المسند ( ٣٦٦٧ ) والبخارى ( ٦٤٨٨ ) .

(٢) البخارى ( ٨٤٣ ) ومسلم ( ١٤٢ / ٥٩٥ ) .

(٣) المسند ( ٦٥٧٩ ) ومسلم ( ١٦ / ٢٦٥٣ ) والترمذى ( ٢١٥٦ ) .

للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليهيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي : جاءكم ، ويقرا : « آتاكم » أي : أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أي : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسميكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخلفوا نعم الله أشراً ويطراً ، تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي : مختال في نفسه متكبر فخور ، أي : على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿الَّذِينَ يَخْتَلُونَ بِآيَاتِنَا وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي : عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [ إبراهيم : ٨ ] .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرَفُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقَيْسِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو : النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : ﴿الْمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدًا مِنْهُ﴾ [ مود : ١٧ ] ، وقال : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [ الروم : ٣٠ ] ، وقال : ﴿وَالسَّمَاءَ وَقَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [ الرحمن : ٧ ] ؛ ولهذا قال في هذه الآية : ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَاتُ<sup>(١)</sup> رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا﴾ [ الانعام : ١١٥ ] أي : صدقاً في الإخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا غرف الجنات ، والمنار العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [ الاحراف : ٤٣ ] .

وقوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحججة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحججة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿يُعْتَبُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصُّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> . ولهذا قال تعالى : ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي : السلاح كالسيوف ، والحرب ، والسنان ، والنصال ، والدروع ، ونحوها ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾

(١) هي قراءة كما مضى بيانه .

(٢) المسند (٥١١٤ ، ٥١١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وأبو داود (٤٠٣١) .

أى : فى معاشهم كالسكة والفاى والقدم ، والنشار ، والإرميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحرثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ وَرَسُولِهِ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصره الله ورسوله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بكم بعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَاتَّبَعْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾

يخير تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولا ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولا ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد ، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أى : رافة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد ابن جبير ، وقناة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله ، عز وجل . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ . يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ . وَصَلِّ لَكُمْ نُورًا تَسْبُحُونَ بِهِ . وَبِعَمَلِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْزِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، كما

في الآية التي في القصة (١) ، وكما في حديث أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ :  
 ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق  
 الله وحق مولاه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران .<sup>١</sup> أخرجاه  
 في الصحيحين . ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن ابن حكيم ، وغيرهما ، وهو  
 اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه  
 الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : صغفين ،  
 وزيادهم : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني : هدى يتبصر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . فضلهم  
 بالنور والمغفرة .

وهذه الآية كقولها تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ  
 وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [ الانفال : ٢٩ ] . وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حبراً من احبار  
 يهود : ما أفضل ما ضعف لكم حسنة ؟ قال : كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة . قال : فحمد الله عمر  
 على أنه أعطانا كفلين . ثم ذكر سعيد قول الله ، عز وجل : ﴿ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد :  
 والكفلان في الجملة مثل ذلك . رواه ابن جرير (٢) . وما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن  
 عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال :  
 من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود . ثم قال : من  
 يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى . ثم قال : من  
 يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذي عملتم . ففضبت  
 النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا :  
 لا . قال : فإنما هو فضلي أوتيته من أشاء .<sup>٣</sup> انفرد بإخراجه البخاري (٣) .

وروى البخاري عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل  
 رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا :  
 لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية  
 عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم  
 الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ، ولك  
 الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ، فإن ما بقي من النهار شيء يسير . فأبوا ،  
 فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر  
 الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور<sup>٤</sup> انفرد به البخاري (٤) .

ولهذا قال تعالى ﴿ لِنَلَّا بِعَلْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ الْأَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أي : ليتحققوا أنهم لا يقدرون  
 على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منح الله ، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ شَاءِ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

(٢) ابن جرير في التصدير ( ٢٧ / ١٤١ ) .

(٤) البخاري ( ٣٤٥٩ ) .

(١) وهي رقم ( ٥٤ ) .

(٣) المسند ( ٥٩٠٢ ) والبخاري ( ٢٢٦٨ ) .